المحاضرة الثالثة

الفرق بين مفهوم النصّ قديمًا وحديثًا

النصّ اصطلاحًا :

لعلّ أول من وضع التعريف الاصطلاحيّ للنصّ هم علماء أصول الفقه، فالشافعيّ وهو مؤسس علم أصول الفقه يعرّفه بأنّه :" المُستغنى فيه بالتنزيل عن التأويل". ومن هذا التعريف نعلم أنّ النصّ هو الذي يُفهم منه المعنى المحدّد الذي أُنزل به ولا يتعداه إلى معانٍ أخرى، فهو" مادلّ بصيغته نفسها على ما يقصد أصلاً من سياقه كقوله تعالى: ﴿ وأحلّ اللهُ البيع وحرّم الربا ﴾، وهذا نصّ ينفي التشابه بين البيع والربا من جهة الحل والحرمة.

ويعرّفه الشريف الجرجانيّ بقوله :" النصّ ما ازداد وضوحًا على الظاهر لمعنىً من المتكلّم، وهو سوق الكلام لأجل ذلك المعنى. فإذا قيل : أحسنوا إلى فلان الذي يفرح بفرحي، ويغتم بغمي، كان نصًا في بيان محبته. وما لايحتمل إلّا معنىً واحدًا، وقيل ما لا يحتمل التأويل".

ثم تطورت دلالة مصطلح النصّ في العصر الحديث في النقد الأدبيّ، ولم يعدّ تحديده متعلقًا بدرجة دلالته؛ لأنّه أصبح مفتوحًا على عدة دلالات، قابلًا لقراءات مختلفة وتأويلات غير منتهية، وتعددت تعريفاته، وغدت له نظرياته، ويعود ذلك إلى المناهج القرائيّة المتعددة.

فمن تعريفاته الحديثة أنّه" المجموعة الواحدة من الملفوظات، أيّ الجمل المنفذة الخاضعة للتحليل، فالنصّ إذن عينة من السلوك اللّسانيّ، وهذه العينة يمكن أن تكون مكتوبة أو محكية"، وهذا التعريف يشير إلى أنّ النصّ بوصفه مجموعة من الملفوظات، يتجاوز الكلمة الواحدة المكتفية بذاتها، وإنّه يمثل جوهر اللّغة بوصفها مجموعة من العلامات المتفاعلة وفق نظام ألسنيّ خاصّ.

ومن تعريفات النصّ ما ينظر إلى عناصره وأجزائه المشكلة له، ومن هذا المنظور يكون النصّ" عبارة عن وحدات لغويّة طبيعيّة منضدة متسقة، ويقصد بالتنضيد ما يضمن العلاقة بين أجزاء النصّ... وبالتنسيق ما يحتوي أنواع العلائق بين الكلمات المعجميّة".

ومجمل القول أنّ المفهوم القديم للنصّ في التراث الفقهي يشاكل المفهوم الحديث عند بارت للنصّ المقروء الذي" كتب بقصد توصيل رسالة محددة ودقيقة ونقلها، كما أنّه يفترض وجود قارئ سلبي تقتصر مهمته على استقبال وإدراك الرسالة". غير أنّ هذا القارئ لا يكون سلبيًا عند مقابلته لنصوص تحتاج إلى قراءة منتجة.

وقد لا نبتعد عن الصواب إذا ما قلنا بأنّ محاولة المطابقة بين النص بمعناه اللغويّ أو الاصطلاحيّ في التراث العربيّ، وبين النص بالمفهوم الذي عرف به في الدراسات النقديّة، يمكن أن تكون محاولة مطابقة قسريّة؛ لأنّ النص لغةً يعني أقصى الشيء ومنتهاه، أي أنّ الكلام (النصّ) قد انتهى وأغلق، ولم يعد قابلًا للزيادة أو القصان أو التغيير أو الاجتهاد؛ لأنّ ما فيه بلغ حدّه وغايته، ولا مزيد بعده، فـ" أصل النصّ أقصى الشيء وغايته".

أما النصّ ما بعد الحداثي " ففقد كتب حتى يستطيع القارئ في كل قراءة أن يكتبه وينتجه، وهو يقتضي تأويلًا مستمرًا ومتغيرًا عن كلّ قراءة، وذلك لأنّ النصّ قد انقطع عن صاحبه وأصبحت لغته هي المتحدثة، يتعامل معها القارئ لا مع صاحب النص؛ ولذلك يتساءل عبد الملك مرتاض محددًا علاقة النصّ بالمؤلف، مقدمًا أحسن تمثيل لها قائلًا:" ألم يأن أن يعتقد كلّ من يعنيه أمر الأدب بمفهومه المعاصر أنّ النصّ الأدبيّ ذو وجود شرعيّ مستقل عن مؤلفه إلى حدّ بعيد، على الرغم من أنّه ينتمي إليه؟ فالنصّ الأدبيّ، بالقياس إلى مبدعه يشبه النطفة التي تقذف في الرحم فينشأ عنها وجود بيولوجي، ولكن الوليد على شرعيته البيولوجية والوراثية لا يحمل بالضرورة كل خصائص أبيه النفسيّة والجسدية والفكرية ... إنّه يستقل بشخصيته عن الأب ".

النصّ إذن وليد شرعيّ للمؤلف ولكنه لا يطابقه، إذ المؤلف واحد، والنص متعدد يختلف باختلاف القرّاء ومن ضمنهم المؤلف نفسه فـ" الذي أبدع النصّ الأدبيّ، بعد وقت قصير من عملية التفريغ الإبداعيّة يصبح هو أيضًا كالآخرين أجنبيًا عن نصّه معمقًا مثقلًا.

النصّ عند الإعجازيين :

كانت نظرة العرب إلى القرآن عند نزوله قائمة على إحساسهم بتفرده وتميز أسلوبه عن أساليبهم، وكان منبع ذلك فطرتهم اللّغويّة وإدراكهم أسرار العربيّة، فالوليد بن المغيرة وهو سيد قريش، وأحد فصحائها لما سمع القرآن قال فيما قاله:" والله إنّ لقوله لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أسفله لمغدق وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّه ليعلو ولا يعلى ، سمعت قولًا يأخذ القلوب...". وهذا كلام لا يمكن أن يصدر عن عدو لدود للإسلام لولا أن تحقق منه.

ولعل أول ما قيل عن إعجار القرآن، أنّه معجز بالصرفة، وقد ذهب إلى ذلك أبو إبراهيم النظام الذي قال: " إنّ الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم وكان مقدورًا لهم، لكن عاقهم أمر خارجيّ، فصار كسائر المعجزات." فهذا الاتجاه يرى أنّ البشر باستطاعتهم أن يأتوا بمثل القرآن لو لا أنّ الله قد صرف دواعيهم عن ذلك وهو اتجاه لا يقوم على دليل من أي مصدر كان؛ فقد حبا الله تعالى عرب الجاهلية من الوسائل البلاغيّة ومن أسباب الفصاحة ما يمكنهم من العديد م وجوه التعبير الباهرة، لكنهم يعجزون عن تأليف مثل القرآن؛ لأنّه كلام الله.

ومن الطبيعي أن تظهر بعض الاختلافات في وجهات نظر الإعجازيين إزاء النصّ القرآنيّ بتعدد المؤثرات الثقافية واختلاف الاتجاهات، من حيث المطابقة في بعض العناصر أو المشابهة أو المفارقة التامة، فقد نالت الظواهر البلاغيّة اهتمامًا كبيرًا من بعضهم، كالرمانيّ، والعسكري، وابن قتيبة، والخطابي، الذين عدّوا تلك الظواهر معايير يستند إليها لمعرفة الإعجاز، وكانت فكرة النظم سببًا في رفض الاحتكام إلى المعايير البلاغيّة، وهو الموقف الذي اتجه إليه الباقلانيّ، لأنّ تلك المعايير جزئيّة فالنصّ القرآنيّ من هذا المنظور نسيج تحقق إعجازه بتكامل أجزائه وتعاضد عناصره، وبنظمه وتأليفه. لقد كان أساس النظم عند الباقلانيّ أساسًا عقديًا، بكون النصّ القرآنيّ عنده صفة من صفات الله ، وذلك يستوجب ماله وإعجازه غير أنّ هذا التصور لم يحل بينه وبين الكشف عن وجوه إعجازه، بوصفه على أنّه نصّ يقرؤه البشر ويفسرونه. عمد الباقلانيّ إذن إلى إثبات إعجاز القرآن، وإنّه من عند الله، وفي الوقت نفسه إلى الكشف عن مواطن الخلل في ما عدّه العرب أجود الشعر، وإلى إبراز سمو القرآن على خطب الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وخطب غيره.

يتفق الباقلانيّ والجرجانيّ على أنّ الإعجاز يقع بالنظم، وإن كان لكل منهما مفهومه الخاص للنظم. فمفهوم النظم لم يأتِ عند الباقلانيّ محددًا كما حدده عبد القاهر الجرجانيّ فيما بعد. ولذلك يحتار الباحث أمام هذا المصطلح عنده ، ولا يتبين له مفهومه إلّا بعد جهد، يقول نصر حامد أبو زيد عن الغموض الذي يكتنف مفهوم الباقلانيّ للنظم:" ورغم أنّه يفرق على مستوى النصوص الأدبيّة بين الوعي النظريّ النقديّ وبين القدرة على الإبداع الأدبيّ، فإنّه في تحديده لمفهوم النظم والتأليف الذي به صار القرآن معجزًا يكاد يدخلنا في منطقة اللاإراديّة" وعدم التعليل".

نظر الباقلانيّ إلى نظم القرآن نظرة شاملة على أنّه بناء، أو بنية، فهو يرى أنّ كثيرًا من السور التي تبدأ بالحروف المقطعة" إذ تأملته فهو من أوله إلى آخره مبني على لزوم حجة القرآن، والتنبيه على وجه معجزته"، وقد مثل لذلك بسورتي فصلت، وغافر. ويقول الباقلانيّ:" والذي ذكرناه من نظم هاتين السورتين ينبه إلى غيرها من السور...، فبان بهذا وبنظائره...أنّه يمكن أن يعلم أنّه كلام الله تعالى، وفارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الأنبياء؛ لأنّها لا تدلّ على أنفسها إلّا بأمر زائد عليها ووصف منضاف إليها؛ لأنّ نظمها ليس معجزًا، وليس كذلك القرآن؛ لأنّه يشاركها في هذه الدلالة ويزيد عليها في أنّ نظمه معجز، فيمكن أن يستدلّ به عليه". فالسورة القرآنيّة عند الباقلاني تسير في اتجاه واحد على الرغم من تعدد مضامينها، هذا من جهة ومن جهة أخرى فهي تدل على قائلها (الله تعالى).

لقد كسف الباقلاني عن وجوه عشرة للإعجاز وقام بتوضيحها، ويمكن القول بأنّها تقترب في أغلبها من مجال الدراسة الأسلوبيّة، وذلك لأنّ الدراسة الأسلوبيّة تهتم بكل ما يتصل بالنصّ الأدبيّ من مميزات فنية وبلاغيّة وأساليب شكليّة، وهذا ما يشير إليه استعماله لمصطلحات تتعلق بهذا المجال: نظام، ترتيب، أسلوب، تخيّر...وهذه المصطلحات تدلّ على أنّ الباقلانيّ يقصد إلى تحديد بناء النصّ، ونظامه الخاصّ الذي يتميز به، أما الجرجانيّ فقد قرر في نفسه منذ البداية" أنّ القرآن معجز، وحاول أن يكتشف فيه مواطن الإعجاز".سائلًا نفسه هل الإعجاز في الألفاظ؟ أهو في الفواصل؟ أم هل هو في الاستعارة؟ هذه الأسئلة دفعته إلى دراسة العناصر الأسلوبيّة المكونة للنصّ القرآنيّ ليصل إلى أنّ الإعجاز لا يجوز أن يكون في الكلم المفردة؛ لأنّ تقدير كونه فيها يؤدي إلى

المحال. فالألفاظ المفردة موجودة قبل نزول القرآن، ولا هو في الفواصل، فالجرجاني يقول بأّ " الفواصل في الآي كالقوافي في الشعر، وقد علمنا اقتدارهم على القوافي كيف هو، فلو لم يكن التحدي إلّا إلى فصول من الكلام يكون لها أواخر أشباه القوافي لم يعوزهم ذلك ولم يتعذر عليهم". ويمتنع عنده الإعجاز في الاستعارة أيضًا؛" لأنّ ذلك يؤدي إلى أن يكون الإعجاز في آيٍ معدودة في مواضع من السور الطوال مخصوصة". ويستقر رأيه في الأخير على أنّه لم يبقَ إلّا أن يكون في النظم والتأليف". فما مفهوم النظم والتأليف عند الجرجاني؟

لم ينفرد الجرجاني بفكرة النظم فقد وجدت الفكرة عند الجاحظ والباقلاني، غير أنّ المفهوم عند الثاني لم يكن واضحًا، بل إنّه لم يكن عميقًا كما هو عند الجرجاني. ولذلك يمكن القول: إنّ الفضل يعود إليه في إرساء مفهوم دقيق محدد له والوصول به إلى حدّ النضج، يقول الجرجانيّ في تحديد النظم :" وأعلم أن ليس النظم إلّا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها". ولعل عبد القاهر لا يقصد بعلم النحو قوانينه المعياريّة؛ لأنّ ذلك يقتضي أن يكون التعبير نمطيًا؛ ولأنّ قوانين النحو ومعاني الألفاظ عنده تمثل النظام اللغوي القار في وعي الجماعة الذي تقوم اللغة على أساسه بوظيفتها الاتصالية".

فالناقد يفرق تفرقة واضحة بين قوانين النحو وبين علم النحو. أما قوانين النحو فمستقرة. وأما " علم النحو أو النظم فهو الذي يحصر الخصائص الفنية أو الأدبيّة في الكلام شعرًا كان أو نثرًا". وإذا كان الكلام يقترف من متكلّم لآخر، فإنّ الجرجاني قد أطلق على الفروق بين أداء المعاني اسم الأسلوب وفي ذلك يقول:" والأسلوب الضرب من النظم والطريقة فيه ". فالمعنى الواحد، يختلف التعبير عنه من شخص إلى آخر ويعود ذلك إلى الخروج عن النمط المعهود، بطريقة مختارة من الطرائق الفنية المبتكرة.

تبدو نظرية النظم عند الجرجاني حديثة في عهدها وهي تتقاطع إذن مع النظريات الحديثة ويظهر ذلك_ على سبيل المثال_ في رأي (فندريس) :" يتم التعبير اللغوي عن الحالة الوجدانية عمومًا بطريقتين : باختيار الكلمات، وبالمكان الذي توضع فيه داخل الجملة. وهذا يعني أنّ للتعبير

الوجداني مصدرين أساسيين هما الكلمات والتركيب النحوي" وذلك لأنّ الكلمات ولو أختيرت فهي ملك لجميع الناس ولذلك يقتضي التعبير الوجدانيّ ذلك الاختيار ووضع الكلمة وضعًا مخصوصًا.

وإذا كان النظم هو العملية التي من خلالها ينعكس ما يترتب في العقل من معاني، فإنّ نظم حروف الكلمات عند الجرجاني لا علاقة له بالمعنى؛ لأنّ اختيار الكلمات عنده يتم بطريقة اعتباطية" ليس نظمها بمقتضى عن المعنى، ولا الناظم لها بمقتفٍ ذي ذلك رسمًا من العقل... فلو أنّ واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد". وعملية النظم قبل أن تتجسد في اللغة المقروءة أو المسموعة تكون مسبوقة بعملية عقلية. يقول الجرجاني:" وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك، لأنّك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيفما جاء واتفق". ونفهم مما سبق أنّ النصّ عند الجرجاني يحتوي على معنى يقصد إليه المتكلّم ويريد توصيله إلى المتلقي، ولا يتم ذلك إلّا بإخضاع تركيب الجمل لهذا المعنى المراد تبليغه.

ولكي ندرك مفهوم النصّ لا بد أن نقف عند مستويين اثنين: المتوى النفسي/ النظمي، والمستوى القرائي. فالمستوى الأول هو مستوى التشكل الذي يخضع لفكر صاحب النص ونفسيته وظروفه، والمستوى الثاني هو الذي يصبح في النص ملكًا للقارئ لينتج دلالته. وقد تطرق الجرجاني إلى المستويين معًا. فالأول ظهر في حديثه عن علاقة العملية العقلية بالنظم، وأما الثاني فلم ينكشف في تمييزه للكلام العادي من الكلام الفني في قوله:" الكلام ضربين : ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده(...) وضرب آخر أن لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، مدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل".والضرب الثاني ما أسماه الجرجاني (معنى المعنى) ، وهو بتعبير مايكل ريفاتير في مقدمة كتابه (سيميائية النص الشعريّ):" النصّ الشعري يقول لنا شيئًا وهو يعني شيئًا آخر." وما قول الشيء الآخر إلا آلية من آليات النص تتطلب من القارئ أن يغوص على ما لم يصرح به النصّ وإنّما هو متوارٍ بشكل من أشكال التعبير ، ولم ينظر

الجرجاني إلى القرآن الكريم نظرة جزئية، يتبين ذلك من رفضه لأن يكون الإعجاز مقصورًا على ظاهرة أسلوبيّة مفردة، بل كانت نظرته شمولية. وانتهى إلى وحدة النص على المستويين التركيبي والدلالي. يقول الجرجاني عن القرآن الكريم:" تأملوه سورة سورة وعشرًا عشرًا، وآية أية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ولفظة ينكر شأنّها، أو يرى أنّ غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقًا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظامًا والتئامًا، واتقانًا وإحكامًا..." وأن وصف الناقد القرآن الكريم بالاتساق والنظام والالتئام والاتقان والإحكام ليكشف عن إدراك الجرجانيّ لحقيقة النص وتأسيس لبنات التحليل النصيّ، إذ النص وحده كبرى لا تتجزأ تتحقق نصيته من معايير أبرزها التماسك الشكليّ والتماسك الدلاليّ.

ولعله بالإمكان أن نقول بأنّ الجرجاني يرجع جماليات النص إلى كون النصّ نسيجًا بحيث لا يصح حصر هذه الجماليات في عنصر منه كالاستعارة والتشبيه ولذلك نجده يدخل الصور البيانية في النظم. والبلاغة عنده ترتبط بمعاني النحو" ذلك لأنّ هذه المعاني التي هي الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون... فلا يتصور أن يكون ههنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد ألف مع غيره. أفلا ترى أنّه إن قدر في " اشتعل" من قوله تعالى:" واشتعل الرأس شيبًا" بأنّ لا يكون الرأس فاعلًا له ويكون سببًا منصوبًا عنه وعلى التمييز لم يتصور ، أن يكون مستعارًا." مستعارًا والواقع أن القضايا البلاغيّة لها علاقة متينة بالتراكيب النحويّة ، فالتركيب النحويّ هو الذي يعطينا الصورة ، ويدلنا على الغرض، ويعطينا النغم الموسيقي.